

الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان البعث في القرآن الكريم – دراسة تفسيرية عقدية

## The Original Creation as Proof of the Possibility of Resurrection in the Qur'an: An Exegetical and Doctrinal Analysis

الحسن شهباز: دكتوراه في الفقه الإسلامي، أستاذ زائر بالمدرسة العليا للأساتذة بفاس

### Abstract:

This study seeks to highlight the Qur'anic methodology of reasoning for the possibility of resurrection and the Hereafter by analyzing the argumentative approach based on the first creation as a central rational proof in Qur'anic discourse. It aims to clarify how the Qur'an employs the principle of initial creation to address sound human reason and to refute the doubts raised by those who deny resurrection, through two main rational approaches: *a fortiori* reasoning (argument by greater priority) and the argument of indication. Drawing on Qur'anic texts as well as the statements of classical exegetes and scholars of rational inquiry, the study concludes that reasoning from the first creation constitutes an integrated model of convergence between sound reason and authentic revelation, and reveals the depth of Qur'anic argumentation in establishing major doctrinal issues

**Keywords:** First Creation, Resurrection and the Hereafter, Qur'anic Argumentation, Analogical Reasoning, Reason and Fitrah.

### ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز المنهج القرآني في الاستدلال على إمكان البعث، من خلال تحليل مسلك الاحتجاج بالنشأة الأولى بوصفه دليلاً عقلياً مركزياً في الخطاب القرآني. وتسعى إلى بيان كيفية توظيف القرآن الكريم لمبدأ الخلق الأول في مخاطبة العقول السليمة، ودحض شبهات المنكرين للبعث، وذلك عبر مسلكين عقليين رئيسيين هما: القياس بطريق الأولى، وقياس التنبيه، مع الاستناد إلى النصوص القرآنية وأقوال المفسرين وأئمة النظر العقلي. وتخلص الدراسة إلى أن الاستدلال بالنشأة الأولى يمثل نموذجاً متكاملًا للتلاقح بين العقل الصريح والنقل الصحيح، كما تكشف عن عمق الحجج القرآني في تقرير القضايا العقدية الكبرى.

الكلمات المفتاحية: النشأة الأولى، البعث، القياس بطريق الأولى، قياس التنبيه.

## مقدمة:

يُعدّ الإيمان بالبعث من أصول العقيدة الإسلامية التي قام عليها الخطاب القرآني في بناء التصور الإيماني للإنسان، إذ يرتبط هذا الأصل ارتباطاً وثيقاً بمسؤولية الإنسان الأخلاقية، وبفهمه لمعنى الوجود والحياة والمصير. وقد واجه القرآن الكريم إنكار المشركين للبعث بعد الموت بمسالك حجاجية متنوعة، جمعت بين مخاطبة الفطرة، واستهزاء العقل، والاحتجاج بالواقع المشهود، في انسجام تام بين النقل الصحيح والعقل الصحيح. ومن أبرز هذه المسالك وأقواها أثراً: الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان البعث، وهو دليل عقلي بديهي يقوم على مبدأ معلوم في العقول السليمة، مفاده أنه من قدر على الإيجاد ابتداءً؛ فهو على الإعادة أقدر.

### 1. أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى بيان الكيفية التي وظّف بها القرآن الكريم هذا المبدأ العقلي في تقرير إمكان البعث، من خلال تحليل مسلكين رئيسيين اعتمد عليهما الخطاب القرآني، هما: القياس بطريق الأولى، وقياس التنبيه، مع الاستعانة بأقوال المفسرين وأئمة النظر العقلي، بما يُبرز عمق الحجج القرآني وقوته المنهجية.

### 2. إشكالية الدراسة:

تعالج الدراسة الإشكالية الآتية: كيف وظف القرآن الكريم الاستدلال بالنشأة الأولى بوصفه مسلكاً حجاجياً عقلياً لإثبات إمكان البعث؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية الأسئلة الآتية:

- ما الملامح المنهجية للحجاج القرآني القائم على الاستدلال بالنشأة الأولى؟
- كيف وظف القرآن الكريم القياس بطريق الأولى في الاستدلال على الإعادة بالبداء؟
- ما موقع قياس التنبيه، القائم على الاستدلال بخلق السماوات والأرض، في تعزيز البرهان القرآني على إمكان البعث؟
- إلى أي مدى يعكس هذا المسلك الحجاجي التلاقي بين العقل الصحيح والنقل الصحيح في الخطاب القرآني العقدي؟

### 3. الدراسات السابقة:

شهد موضوع الحجاج في القرآن الكريم عناية متزايدة في الدراسات المعاصرة، حيث سعى عدد من الباحثين إلى تحليل الآليات الحجاجية التي يوظفها الخطاب القرآني في تقرير القضايا العقيدية وإقناع المخاطبين بها. ومن أبرز هذه الدراسات ما قام به محسن بن علي الشهري في دراسته الموسومة بأسلوب الحجاج في إثبات البعث في النظم الكريم بين المكي والمدني: دراسة بلاغية تحليلية<sup>1</sup>؛ حيث تناول الباحث الأساليب البلاغية والحجاجية التي اعتمدها القرآن الكريم في تقرير قضية البعث، مبرزا اختلاف طرائق الحجاج بين السياقين المكي والمدني، مع التركيز على الأبعاد الإقناعية للنظم القرآني في معالجة إنكار البعث.

كما اهتمت دراسات أخرى بتحليل الحجاج القرآني في موضوع الآخرة عموما، ومن ذلك دراسة محمد سلطاني المعنونة بالحجاج القرآني في موضوع الآخرة بين المنطق العقلي والاستدلال القيمي والتأثير الوجداني<sup>2</sup>، والتي بينت أن الخطاب القرآني يجمع بين البرهان العقلي، والتأثير الوجداني، والاستدلال القيمي في بناء حججه المتعلقة بالبعث والحساب.

وفي سياق أوسع، تناولت بعض الدراسات الحجاج في القرآن من زاوية بلاغية ولسانية، مثل دراسة محمد بن علي درع بعنوان الحجاج البلاغي في القرآن الكريم في موضوعات التوحيد والبعث والنبوة<sup>3</sup>، حيث أبرزت هذه الدراسة مكانة الحجاج في البلاغة القرآنية، وآليات بناء الإقناع في النص القرآني من خلال الأدوات البلاغية والأسلوبية.

<sup>1</sup> الشهري، محسن بن علي، أسلوب الحجاج في إثبات البعث في النظم الكريم بين المكي والمدني: دراسة بلاغية تحليلية، مجلة العلوم الإسلامية، المجلد 2، العدد 6، ديسمبر 2019م، ص: 107-116.

<sup>2</sup> سلطاني، محمد، الحجاج القرآني في موضوع الآخرة بين المنطق العقلي والاستدلال القيمي والتأثير الوجداني، العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 7، العدد 2، جوان 2023م، ص: 430-446.

<sup>3</sup> درع، محمد بن علي، الحجاج البلاغي في القرآن الكريم في موضوعات التوحيد والبعث والنبوة، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، المجلد 8، العدد 20، تاريخ النشر 2021/11/30م، ص: 221-261.

وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات في إبراز البعد الحجاجي للخطاب القرآني، فإنها لم تُفرد -في الغالب- عناية خاصة بمسلك الاستدلال بالنشأة الأولى بوصفه دليلاً عقلياً مركزياً في تقرير إمكان البعث. ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتتناول هذا المسلك الحجاجي بالتحليل، من خلال الوقوف على بنيته المنطقية وآلياته الاستدلالية في القرآن الكريم، مع إبراز دوره في بناء الحجج العقدي القائم على الجمع بين مقتضيات العقل السليم ودلالة النص القرآني.

#### 4. أهمية البحث:

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من تناولها لمسلك حجاجي مركزي في الخطاب القرآني، يتمثل في الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان البعث، وهو مسلك يتكرر في مواضع عديدة من القرآن الكريم، ويُعدّ من أبرز الأدلة العقلية التي خاطب بها القرآن الكريم عقول المنكرين للبعث. وعلى الرغم من عناية عدد من الدراسات المعاصرة بموضوع الحجج في القرآن الكريم، وبالأساليب البلاغية والعقلية التي اعتمدها الخطاب القرآني في تقرير القضايا العقدية؛ فإن مسلك الاستدلال بالنشأة الأولى لم يحظ -في حدود ما أطلع عليه الباحث- بدراسة مستقلة تُبرز بنيته الحجاجية وآلياته الاستدلالية في ضوء التحليل المنهجي للنصوص القرآنية.

ومن هنا تسعى هذه الدراسة إلى الإسهام في سدّ هذا النقص من خلال تحليل هذا المسلك الحجاجي تحليلاً علمياً، بالوقوف على الأسس العقلية التي يقوم عليها، وبيان الكيفية التي وظفها بها القرآن الكريم في تفكيك شبهات المنكرين للبعث، كما تروم الدراسة الكشف عن طبيعة العلاقة بين البرهان العقلي ودلالة النص القرآني في هذا السياق، بما يبرز التكامل بين العقل الصريح والنقل الصحيح في بناء التصور العقدي الإسلامي.

#### 5. منهج الدراسة:

ستعتمد هذه الدراسة على مساءلة الرصيد المعرفي للدراسات والكتابات التي تناولت مسألة البعث في الخطاب القرآني، مع تحليل المناهج الحجاجية والأدوات العقلية التي وظفها القرآن الكريم في تقرير هذه القضية العقدية، وذلك بالاعتماد على المنهج الاستقرائي في تتبع الآيات القرآنية التي استدلت فيها بالنشأة الأولى على إمكان البعث، من خلال جمعها وحصرها واستقراء

دلالاتها في سياقاتها المختلفة؛ مستعينا بالمنهج الوصفي التحليلي في وصف هذه الآيات وتحليل بنيتها الدلالية والحجاجية، وبيان آليات اشتغال القياس العقلي فيها في ضوء أقوال المفسرين وأئمة النظر العقلي. ولن يتجه البحث إلى استقصاء جميع المسالك الاستدلالية الواردة في النص القرآني، ولا إلى المقارنة بين الاتجاهات الكلامية المختلفة في تقرير البعث، لكون الهدف ليس ترجيح مذهب عقدي بعينه، ولا المفاضلة بين مناهج تفسيرية متباينة، وإنما ينصرف إلى تحليل نموذج حجاجي محدد، وهو الاستدلال بالنشأة الأولى، قصد إبراز بنيته المنهجية وآلياته العقلية ومدى انسجامه مع مقتضيات العقل السليم والفطرة المستقيمة.

#### 6. خطة الدراسة:

تم تقسيم هذه الدراسة إلى محاور أساسية، وهي:

مقدمة، وتشمل أهداف الدراسة، وإشكالية البحث، ومنهجه، وخبطه.  
ثم ثلاثة مطالب: خصص الأول لبيان أن النشأة الأولى أساس للاحتجاج العقلي على البعث، والثاني خصص للحديث عن القياس بطريق الأولى في الاستدلال على البعث، ثم المطلب الثالث الذي تناول قياس التنبيه والاستدلال بخلق السماوات والأرض.  
ثم ختمت الدراسة بخاتمة تتضمن أهم النتائج والتوصيات، مع ثبت يشتمل على لائحة المصادر والمراجع.

#### المطلب الأول: النشأة الأولى أساس للاحتجاج العقلي على البعث

يقتضي تناول مسألة الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان البعث الوقوف ابتداءً عند ضبط المفاهيم المركزية المؤطرة لهذه الدراسة، لما لذلك من أثر في توجيه الفهم وتحديد زاوية النظر.

1. مفهوم البعث: الباء والعين والثاء أصل واحد، وهو الإثارة، ويقال بعثت الناقة إذا أترتها<sup>1</sup>، وبعثه، كمنعه: أرسله، وبعث فلانا من منامه: أهبه، والبعث: الجيش، والنشر<sup>2</sup>. والبعث ضربان: بشري، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة، وإلهي، وذلك ضربان: أحدهما إيجاد الأعيان والأجناس عن ليس، وذلك يختص به البارئ تعالى، ولم يقدر عليه أحد. والثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه، كعيسى صلى الله عليه وسلم وأمثاله<sup>3</sup>.

أما البعث في الاصطلاح العقدي فيراد به: "إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع الأجزاء الأصلية"<sup>4</sup>. فالبعث هو إحياء الأجساد بعد الموت وردّ الأرواح إليها، تمهيدا للحساب والجزاء.

ويلاحظ أن الخطاب القرآني لم يتعامل مع قضية البعث بوصفها مجرد مسألة غيبية يُطلب فيها التسليم المحض، وإنما جعلها مجالاً للحجاج العقلي، واستثمر فيها ما هو مشترك بين البشر من بديهيات عقلية ومسلمات فطرية، وفي مقدمتها الإقرار بالنشأة الأولى.

2. مفهوم النشأة الأولى: النشأة الأولى في الاصطلاح التفسيري والعقدي هي: الخلق الأول للإنسان وإيجاده ابتداءً من العدم في الحياة الدنيا، قبل نشأته الأخرى يوم القيامة. يقول الطبري في تأويل قوله تعالى وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ [سورة الواقعة: 65] "ولقد علمتم أيها الناس الإحداثة الأولى التي أحدثناكموها، ولم تكونوا من قبل ذلك شيئاً... فهلا

<sup>1</sup> ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تخ: عبد السلام محمد هارون، كتاب الباء، باب الباء والعين وما يثلثهما، المجمع العلمي العربي الإسلامي، 1399هـ/1979م، ج، 1، ص: 266.

<sup>2</sup> الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، باب الثاء، فصل الباء، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الرابعة: 1436هـ/2015م، ص: 165.

<sup>3</sup> الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تخ: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، الطبعة السادسة: 1435هـ/2014م، كتاب الباء، ص: 132.

<sup>4</sup> أبو دقيقة، محمود، القول السديد في علم التوحيد، مجلس حكماء المسلمين، أبوظبي، الطبعة الأولى: 1445هـ/2024م، ج، 3، ص: 263.

تذكرون أيها الناس، فتعلموا أن الذي أنشأكم النشأة الأولى، ولم تكونوا شيئاً، لا يتعذر عليه أن يعيدكم من بعد مماتكم وفنائكم أحياء"<sup>1</sup>.

إن الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان البعث يقوم على قاعدة عقلية مستقرة، وهي أن الإعادة في تقدير العقول السليمة أهون من الابتداء، لأن الإيجاد من العدم أبلغ في القدرة من إعادة الموجود بعد فوائده. وهذا المعنى تدركه العقول السليمة بالفطرة، وتشهد له التجارب الإنسانية في مختلف مجالات الحياة؛ إذ يُسَلِّم العقل بأن من أوجد الشيء أول مرة، أو صنعه ابتداءً، كان أقدر على إصلاحه أو إعادته إلى حالته الأولى بعد فساده.

ومع رسوخ هذا المبدأ في العقول السليمة؛ فقد أنكرت طوائف من المشركين إمكان البعث، وجادلوا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى بعد أن تصير الأجساد عظاماً رميماً. وقد نقلت السنة النبوية نموذجاً واضحاً لهذا الإنكار، في قصة مجيء العاص بن وائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحمل عظماً قد بَلِيَ، يستبعد إعادة إحيائه؛ فجاء الرد النبوي والقرآني مؤسساً على تذكيره بالنشأة الأولى التي نسبها. فعن ابن عباس رضي عنه قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم، وهو يُفتته ويُذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "نعم" يُميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار"<sup>2</sup>.

ومن هنا يتبين أن منشأ الشبهة ليس في قصور الدليل، وإنما في الغفلة عن أصل عقلي بديهي، أو في انحراف الفطرة عن مسارها السوي. ولذلك وجدنا القرآن الكريم يسلك عدة طرق لإثبات

<sup>1</sup> الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، حققه أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م: 88/23.

<sup>2</sup> أخرجه الحاكم في المستدرک، برقم: 3606، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه". حققه محمود أحمد ميرة، دار المنهاج، الطبعة الأولى، 1447هـ/2025م: 428/2.

البعث بعد الموت، وكان أعظم هذه الطرق التي اعتمدها القرآن الكريم الاستدلال بالخلق الأول على إمكان البعث. فكيف وظف القرآن الكريم هذا المبدأ في إثبات البعث بعد الموت؟

لقد خاطب القرآن الكريم العقول السوية بهذا الدليل العقلي؛ لأن "الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل والفترة السليمة"<sup>1</sup>، وهذا الدليل يستند إلى قياسين عقليين: أولهما: القياس بطريق الأولى. وثانيهما: قياس التنبيه.

### المطلب الثاني: القياس بطريق الأولى في الاستدلال على البعث

يُعدّ القياس بطريق الأولى من أبرز المسالك العقلية التي اعتمدها القرآن الكريم في تقرير إمكان البعث، ويقوم هذا القياس على أن ثبوت الحكم في الأعلى يستلزم ثبوته في الأدنى من باب أولى. وقد سعى شيخ الإسلام ابن تيمية هذا المسلك «القياس بطريق الأولى»<sup>2</sup>، وهو استدلال على إعادة بالنشأة الأولى.

ولا يقتصر القياس بطريق الأولى في القرآن الكريم على كونه أداة استدلالية جزئية، وإنما يتجاوز ذلك ليشكل مبدأ منهجياً في بناء الحجج العقدي، إذ يُنقلُّ فيه الذهن من المعلوم المُقرَّر به إلى المجهول المنكّر، عبر رابطة عقلية واضحة لا تحتمل الانفصال. وهذا ما يجعل هذا النوع من القياس أبلغ في الإقناع من مجرد الإخبار أو التقرير.

وبتميّز هذا المسلك القرآني بكونه لا يصادم العقل، ولا يفرض عليه نتائج مسبقة، وإنما يقوده خطوة خطوة إلى النتيجة، انطلاقاً مما يُسلّم به أصلاً. فإقرار المشركين بالخلق الأول تحوّل في

<sup>1</sup> ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد، شرح العقيدة الطحاوية. حققه الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة: 1440هـ/2019م: 222-223.

<sup>2</sup> ابن تيمية، تقى الدين أحمد بن عبد الحلیم، درء تعارض العقل والنقل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية السعودية، الطبعة الثانية: 1411هـ/1991م: 381/7.

الخطاب القرآني- من مجرد اعتراف نظري إلى حجة ملزمة، تُنقَضُ بها دعاوى الاستبعاد، وتُكشَفُ بها التناقضات الكامنة في خطاب الإنكار.

ومن هنا يظهر أن القياس بطريق الأولى في الاستدلال على البعث ليس مجرد تشابه صوري بين الابتداء والإعادة، وإنما هو بناء منطقي محكم، يستند إلى وحدة العلة، واتحاد القدرة، وانتفاء الفارق المؤثر، وهو ما يجعله من أقوى مسالك الحجج العقلية في القرآن الكريم.

فالله سبحانه وتعالى الذي أنشأ الخلق أول مرة من العدم، قادر على إعادته بعد فنائه، بل إن الإعادة -بحسب تقدير العقول السليمة- أيسر من الابتداء. وقد ورد هذا المعنى في مواضع عديدة من القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: {كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [سورة الأعراف: 29]. وقوله: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ} [سورة الأنبياء: 104]. وقوله: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [سورة مريم: 66-67].

وقد نبّه نجم الدين الطوفي إلى هذا المسلك بقوله: "وأما الذين أنكروا المعاد؛ فاحتج الله سبحانه وتعالى عليهم بطرق من القياس العقلي: أحدها: قياس إعادة الخلق على ابتداءه بجامع إمكان ذلك"<sup>1</sup>؛ فالعلة واحدة في الأمرين، والعقول مقرة بعدم التفريق بين المتساويين؛ فالله "تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً؛ أفلا يعيده وقد صار شيئاً"<sup>2</sup>؛ وهكذا يذكر سبحانه وتعالى هؤلاء المنكرين للبعث بالنشأة الأولى لتنتفي الغرابة من إعادة الخلق والبعث في عقولهم. ويزداد هذا الدليل قوة إذا علمنا أن المشركين أنفسهم كانوا يقرّون بالخلق الأول، ويعترفون بأن الله تعالى هو خالق الإنسان، قال سبحانه: {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} [سورة الزخرف: 87]، فَمَع إقرارهم بالخلق الأول يُنكرون البعث والنشور {إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ إِن}

<sup>1</sup> الطوفي، نجم الدين سليمان، شرح مختصر الروضة، حققه الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الثانية: 1419هـ/1998م. توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالملكة العربية السعودية: 253/3.  
<sup>2</sup> ابن كثير، اسماعيل بن عمرو، تفسير القرآن العظيم، حققه: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420هـ/1999م: 251/5.

هِيَ إِلَّا مُؤْتَنَّتْنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ} [سورة الدخان: 35]، وهو ما يكشف عن خلل في منهج الاستدلال لا عن غموض في الدليل.

ويوضح لنا القرآن الكريم منشأ هذا الخلل عند المشركين بقوله تعالى: {وَقَالُوا أَذًا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَبَعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} [سورة الإسراء: 49]، فهم يستبعدون إعادة البعث؛ لأن العظام في نظرهم قد صارت رميما، واختلطت بتراب الأرض؛ فكيف يمكن إعادتها وإحيائها مرة أخرى؟ مؤكداين فكرتهم هذه؛ بأنهم لم يسبق لهم رؤية أحد من آبائهم مات ثم عاد إلى الحياة مرة أخرى. قال الله تعالى حكاية عنهم: {فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الدخان: 34]. وهذا إنما يدل على ضعف إدراكاتهم، وتهافت أفكارهم، ونقص في عقولهم؛ إذ إن الواقع المشاهد والمحسوس يُظهر لنا إمكانية إعادة الأشياء البالية إلى هيئاتها الأولى، وإن الذي يستطيع صنع حذاء أو خياطة ثوب مثلا، قادر على إعادة فعل مثله أو أحسن منه، بل إن العقل يُقر أن الإعادة أسهل، وكذلك الخالق الذي يقدر على الخلق ابتداء من عدم، قادر على إعادة الخلق؛ بل هو أهون عليه، وهذا دليل عقلي واضح، قال الله سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [سورة الروم: 26].

قال الإمام الطبري رحمه الله: "هو الذي يبدأ الخلق من غير أصل فيُنشئُه ويوجده، بعد أن لم يكن شيئا، ثم يفنيه بعد ذلك، ثم يعيده، كما بدأه بعد فنائه، وهو أهون عليه"<sup>1</sup>، وقوله تعالى: {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} "أي: بالنسبة للمخلوقين الذين تتفاوت الممكنات عندهم سهولة وصعوبة"<sup>2</sup>، وليس بالنسبة لله تعالى العزيز الحكيم، الذي يقول للشيء: كن؛ فيكون، "وجه كون الإعادة أهون في تقدير العقول البشرية من الابتداء، هو أن الإعادة مبنية على الإبداء؛ لأن المعاد له أصل في الوجود والحياة، والإبداء ليس مبنيا إلا على مجرد القدرة الباهرة، لا على سبب سابق"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق: 92-91/20.

<sup>2</sup> الطوفي، شرح مختصر الروضة، مرجع سابق: 253/3.

<sup>3</sup> نفسه: 254/3.

ولظهور هذا الدليل العقلي في الأذهان، جعله الله تعالى ردا مباشرا على ذلك الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل عظما قد رَمَّ، ويستعظم على الله تعالى إعادة إحيائه: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [سورة يس: 77-78].

قال القاضي ابن أبي العز الدمشقي رحمه الله: "فلورام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها، في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضوح الأدلة، وصحة البرهان، لما قدر؛ فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضى جوابا، فكان في قوله: {وَنَسِيَ خَلْقَهُ} ما وُفِّي بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة؛ لو ما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها، فقال: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}؛ فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه، قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزا عن الثانية، لكان عن الأولى أعجز وأعجز"<sup>1</sup>.

وهكذا جمع هذا النص القرآني بين بيان منشأ الشبهة، والرد عليها في أوجز عبارة، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، وهو من أقوى أوجه الحجج العقلي في القرآن الكريم.

إن الاستدلال بالنشأة الأولى في الخطاب القرآني لا ينفصل عن البنية العميقة للعقل الإنساني، ولا عن مقتضيات الفطرة السليمة التي فُطر عليها الإنسان؛ فالإقرار بأن الإعادة أهون من الابتداء ليس نتاجا لبرهنة فلسفية معقدة، بقدر ما هو حكم بدهي يستقر في الذهن بمجرد التصور، وهو ما يجعل هذا المسلك الحجاجي قريبا من عامة العقول، على اختلاف مستوياتها الثقافية والمعرفية.

ويؤكد هذا المعنى أن القرآن الكريم كثيرا ما يربط إنكار البعث بالغفلة أو النسيان، كما في قوله تعالى: {وَنَسِيَ خَلْقَهُ}، في إشارة إلى أن منشأ الإنكار ليس فقدان الدليل، وإنما تعطيل آليات

<sup>1</sup> ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق: 227/2.

النظر السليم، أو طمس معالم الفطرة: فلو استحضرت المنكر نشأته الأولى، وتأمل حقيقة إيجاده من عدم، لانقلب الاستبعاد إلى إقرار، والإنكار إلى تسليم.

ويمكن القول إن الاستدلال بالنشأة الأولى يجمع بين كونه برهانا عقليا من جهة، وتنبيها فطريا من جهة أخرى، وهو ما يمنحه قوة إقناعية مضاعفة، ويُفسر تكراره في السياق القرآني بأساليب متعددة، مراعاةً لاختلاف المخاطبين وتفاوت مداركهم.

### المطلب الثالث: قياس التنبيه والاستدلال بخلق السماوات والأرض

إلى جانب القياس بطريق الأولى، اعتمد القرآن الكريم مسلكا عقليا آخر يُعرف بقياس التنبيه<sup>1</sup>، وهو أن يكون الحكم في الفرع أجلى وأظهر منه في الأصل، فينبه العقل على ما هو أولى بالإقرار. وقد استعمل القرآن هذا القياس في الاستدلال على إمكان البعث بخلق السماوات والأرض، باعتبار أن خلقها أعظم وأجل من خلق الإنسان.

وقد استعمله القرآن الكريم في مواضع عدة، منها:

(1) {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [سورة يس: 80].

(2) {وَأَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْجِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [سورة الأحقاف: 32].

ويبرز قياس التنبيه في الخطاب القرآني بوصفه انتقالا بالعقل من ملاحظة الأعظم إلى التسليم بالأهون، وهو مسلك يوسع أفق النظر، ويرفع مستوى التأمل من الجزئي إلى الكلي. فخلق السماوات والأرض بما فيه من إحكام واتساع وتعقيد، يمثل في ذاته شاهدا دائما على القدرة المطلقة، بحيث يصبح إنكار البعث بعد ذلك ضربا من المكابرة العقلية.

<sup>1</sup> ينظر: الطوفي، شرح مختصر الروضة، مرجع سابق: 254/3.

ويلاحظ أن القرآن الكريم لا يطرح هذا القياس في صيغة تقريرية جامدة، وإنما يورده غالباً في قالب استفهامي إنكاري، يستفز العقل، ويوقظ ملكة التفكير، ويضع المنكّر أمام لوازم قوله دون حاجة إلى جدل مطوّل. وهذا الأسلوب يعكس عمق المنهج القرآني في بناء الإقناع، ويؤكد أن المقصود الأعظم ليس مجرد إلزام الخصم، وإنما هدايته إلى مقتضى العقل والفترة.

كما أن هذا المسلك يُظهر سعة الخطاب القرآني، وقدرته على مخاطبة الإنسان من خلال الكون المفتوح من حوله، وربط القضايا الغيبية الكبرى بالآيات الكونية المشهودة، في تلازم دقيق بين الوحي والواقع.

يقول ابن تيمية رحمه الله موضحاً هذا القياس: "ومن المستقر في بداءة العقول أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق آدميين، فإذا كان فيها من الدلالة على علم خالقها وقدرته وحكمته ما بهر العقل، أفلا يكون ذلك دالاً على أنه قادر على إحياء الموتى، لا يعي بذلك كما لم يعي بالأول بطريق الأولى والأخرى"<sup>1</sup>.

فالعقل السوي والمنطق السليم يُقر إقراراً لا جدال فيه، أن من قدر على خلق المخلوقات الكبيرة العظيمة، مثل السماوات والأرض، فهو على خلق المخلوق الضعيف أقدر وأجدر، وتلك مُسلّمة لا جدال فيها. قال الله تعالى: {الْخَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة غافر: 56].

يقول ابن أبي العز رحمه الله: "فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل، فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار، فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً"<sup>2</sup>. فكيف يقبل الإنسان أن يتنكر للمنطق السليم، ولو أنه أنكر الأصل والأعظم لكان إنكاره للفرع والأهون شيئاً مقبولاً، ومذهباً سهلاً، لكن الاعتراف بالأصل مع إنكار الفرع يعد تناقضاً عقلياً صارخاً.

<sup>1</sup> ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، مرجع سابق: 381/7.

<sup>2</sup> ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية، مرجع سابق: 228/2.

إن الذي ينكر قدرة الله على البعث بعد الموت قد فاق إبليس في الكبر والعناد؛ ذلك أن إبليس يسلم بالبعث، قال الله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْتَنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ {المُعْلَم} [سورة ص: 78-80]. قال الإمام الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: قال إبليس لربه: ربِّ فإذا لعنتني، وأخرجتني من جنتك، {فَأَنْظِرْتَنِي} يقول: فأخزني في الأجل، ولا تهلكني، {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، يقول: إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم"<sup>1</sup>.

فكيف تتنكر لمنطقك أيها الإنسان، وتقبل أن تخسر أصل إنسانيتك التي زانها العقل السليم، وتتجاهل نداء الفطرة في داخلك، وتكذب إلهك وخالقك، الذي يقول في الحديث القدسي: "كذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يكذبني وشتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له أن يشتمني أمّا تكذيبه إياي فقولته إني لا أعيدُه كما بدأته وليس آخرُ الخلق بأعزَّ عليَّ من أوله وأمّا شتمه إياي فقولته {اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} وأنا الله [الأحد] الصمدُ لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مرجع سابق: 240/21.

<sup>2</sup> البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، برقم: 4974. كتاب التفسير: 180/6.

## الختامة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن الاستدلال بالنشأة الأولى يشكل أحد أبرز المسالك الحجاجية العقلية في القرآن الكريم لإثبات إمكان البعث والمعاد؛ فقد تبين أن هذا الاستدلال يقوم على مبدأ عقلي بدهي مفاده أن الإعادة أسهل من الابتداء، وأن من قدر على إيجاد شيء من العدم قادر على إعادة إنشائه بعد الفناء. كما أوضحت الدراسة أن القرآن الكريم وظف هذا المسلك عبر مسلكين متكاملين: القياس بطريق الأولى، الذي ينقل الذهن من المعلوم إلى المجهول، وقياس التنبيه، الذي يربط قدرة الخالق على البعث بما هو أعظم، مثل خلق السماوات والأرض، بما يعزز قبول العقل السليم للحجة.

وأظهرت الدراسة أن منشأ إنكار البعث في الخطاب القرآني لا يعود إلى قصور الدليل، وإنما يرجع إلى ضعف الاستعداد العقلي أو الغفلة عن الفطرة السوية، وهو ما يفسر تكرار القرآن لمختلف صيغ الاستدلال بالنشأة الأولى، لتوجيه العقل البشري نحو التأمل والفهم الصحيح للقدرة الإلهية. كما أبرزت الدراسة التكامل بين العقل الصريح والنقل الصحيح في بناء الحجج العقدية، إذ لا يتعارض البرهان العقلي مع النص القرآني، وإنما يعزز دلالته ويقوّي الإقناع.

وانطلاقاً من النتائج التي انتهت إليها الدراسة، يمكن اقتراح جملة من التوصيات والأفاق البحثية، من أبرزها:

- تعميق الدراسات الحجاجية في القرآن الكريم، خاصة تلك المتعلقة بالقضايا العقدية الكبرى، مع التركيز على البنية المنطقية والأساليب العقلية المعتمدة في الخطاب القرآني.
- دراسة مسالك الاستدلال القرآني الأخرى على البعث والمعاد، مثل الاستدلال بإحياء الأرض بعد موتها، أو الاستدلال بقدرة الله المطلقة، ومقارنتها بمسلك النشأة الأولى من حيث القوة الحجاجية والأثر الإقناعي.
- المقارنة بين الحجج القرآني والفلسفي في قضية البعث، لإبراز خصوصية المنهج القرآني وتمييزه عن الطروحات الفلسفية القديمة والحديثة.

- توظيف نتائج هذا البحث في تجديد الخطاب العقدي والدعوي، خاصة في مواجهة النزعات المادية والإلحادية المعاصرة، التي تنكر الغيب بدعوى العقل والعلم.

- فتح مجال البحث في العلاقة بين العقل والفطرة في الاستدلال القرآني، باعتبارهما مدخلين أساسيين لفهم طبيعة الإقناع في القرآن الكريم.

وتؤكد هذه التوصيات أن موضوع النشأة الأولى لا يزال مجالاً خصباً للبحث العلمي، بما يتيح من إمكانات معرفية ومنهجية تسهم في تعميق فهم الحجاج القرآني، وترسيخ القضايا العقدية على أسس عقلية راسخة.

## المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش.
- ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد، شرح العقيدة الطحاوية. حققه الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة: 1440هـ/2019م.
- ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، درء تعارض العقل والنقل، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية السعودية، الطبعة الثانية: 1411هـ/1991م.
- ابن فارس، أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، كتاب الباء، باب الباء والعين وما يتلثما، المجمع العلمي العربي الإسلامي، 1399هـ/1979م.
- ابن كثير، اسماعيل بن عمرو، تفسير القرآن العظيم، حققه: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420هـ/1999م.
- أبو دقيقة، محمود، القول السديد في علم التوحيد، مجلس حكماء المسلمين، أبو ظبي، الطبعة الأولى: 1445هـ/2024م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، دار الجيل، بيروت.
- الحاكم أبو عبد الله، المستدرک على الصحيحين، حققه: محمود أحمد ميرة، دار المنهاج، الطبعة الأولى، 1447هـ/2025م.
- درع، محمد بن علي، الحجاج البلاغي في القرآن الكريم في موضوعات التوحيد والبعث والنبوة، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، المجلد 8، العدد 20، تاريخ النشر 2021/11/30م، ص: 221-261.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تح: صفوان عدنان داوودي، دار القلم دمشق، الطبعة السادسة: 1435هـ/2014م.

- سلطاني، محمد، الحجاج القرآني في موضوع الآخرة بين المنطق العقلي والاستدلال القياسي والتأثير الوجداني، العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، المجلد 7، العدد 2، جوان 2023م، ص: 430-446.
- الشهري، محسن بن علي، أسلوب الحجاج في إثبات البعث في النظم الكريم بين المكي والمدني: دراسة بلاغية تحليلية، مجلة العلوم الإسلامية، المجلد 2، العدد 6، ديسمبر 2019م، ص: 107-116.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، حققه أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م.
- الطوفي، نجم الدين سليمان، شرح مختصر الروضة، حققه الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الثانية: 1419هـ/1998م. توزيع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، باب الثاء، فصل الباء، مؤسسة الرسالة ناشرون، الطبعة الرابعة: 1436هـ/2015م.